الباب الخامس

في العراق

إن تكلم أصحاب الحديث يوما

فبلسان الشافعي.

"**محمد بن الحسن**"

الفصل الأول

بغداد مدينة السلام: عاصمة العلوم

دخل الشافعي بغداد وهي تضطرب بالأفكار، وبالناس من كل الأجناس، وبالمجوس والزنادقة والشعوبيين الكارهين للإسلام، ومنهم الزرادشتيون والمانويون والمزدكيون والراوندديون والمقنعيون والخرمية.

أما المسلمون فمنهم شيعة وخوارج وقدريون ومرجئة ومتكلمون ومعتزلة. ولكل فرقة فرق. وأما أهل السنة فهم الدولة وجمهور الأمة، لكنهم مذاهب شتى. وكان المسلمون يقودون العالم في العلوم الرياضية والطبيعية والاجتماعية لتتعالى في الأسماع، أسماء من أعظم الأسماء في الرياضيات العالية، والفلسفة والأدب، إلى جوار أعظم الأسماء في الفقه العالمي وأعظم الخلفاء بعد الخلفاء الراشدين.

لقد كان المسلمون في النصف الثاني من القرن الثاني، طوال حياة الشافعي، يحققون معجزة أخرى في فتوح الفكر. وبهذا دخل عالم قريش بغداد كما يدخل المعدن الحر في البوتقة.

الزنادقة:

دان الفرس قبل الإسلام بأخلاط من الديانات:

الزرادشتية: (أتباع زرادشت – مات نحو سنة ٥٨٣ ق. م) يؤمنون بإلهين للخير والشر. والمانوية (أتباع ماني ولد سنة ٢١٥ ق. م) يرون للعالم أصلين هما النور والظلمة. ووجود الناس عندهم جناية فلا داعي للزواج. والمزادكة (أتباع مزدك ٤٨٧م) يرون شيوع المال والنساء. ولما طرد جوستنيان العلماء الوثنيين في أثينا، وأغلق الأكاديمي، وحل علماء اليونان إلى جنديسابور فآواهم كسرى أنوشروان (٥٣٩م). وبدأ تخليط وثني أغريقي في الأفكار الوثنية الفارسية.

وفي عهد المنصور ظهر الروندية (من راوند من أعمال أصفهان) ينادون بأن الروح انتقل من عيسى عليه السلام حتى الأئمة من أبناء علي! وبأن المنصور إله، فخرج من قصره يحارب جموعهم وكادوا يقتلونه!

وهم في خبئ أمرهم أشياع أبي مسلم الخراساني الذي فتك به أبو جعفر.

وفي عهد المهدي سنة ١٦١ ادعى حكيم المقنع الألوهية. ونادى أتباعه بتناسخ الأرواح. وأن الخلافة آلت إلى محمد بن الحنفية فالعباسيين فأبي مسلم. عطلوا الصلاة والزكاة والحج. وفتك المهدي بهم وبآلهتهم. وأنشأ ديوان الزنادقة لملاحقة الزنادقة، وأنشأ هيئة علمية لمناظرتهم وتأليف الكتب ضدهم.

وفي عهد المأمون ظهر بابك الخرمي بقصد تحويل الملك من العرب إلى الفرس. يسقط أتباعه الفروض الدينية. ويكثرون الصلاة على فيروز بن بنت أبي مسلم!

الخوارج:

شجر النزاع على الخلافة بعد وفاة النبي، وبويع لأبي بكر فعمر فعثمان. حتى إذا قتل، بايع المسلمون عليا إلا كبراء بني أمية وبعض الصحابة، وقامت الحرب بين علي وطلحة والزبير بدعوى قعود علي عن قتلة عثمان، فظفر بهما في "وقعة الجمل" ثم تلاقى مع جيش معاوية في العام التالي في "صفين". ولما استيقن معاوية وجيشه الهزيمة رفعوا المصاحف، طلبا للتحكيم، فقبل علي. واختار صحبه أبا موسى الأشعري، فاختاره. واختار معاوية عمرو بن العاص، فاتفق الحكمان على خلع صاحبيهما، فخلع أبو موسى عليا، لكن عمرا أقر معاوية!

وخرج علي أمير المؤمنين علي، طائفة سموا أنفسهم "الخوارج" لخروجهم في سبيل الله. وظفر بهم في "النهروان". وتواعد جماعة ابن ملجم الثلاثة لليلة من رمضان سنة ٤٠ على قتل علي ومعاوية وعمرو غيلة. فقتل أمير المؤمنين، وأصيب معاوية ولم يهلك. أما عمرو فكان استخلف "خارجة" على الصلاة فحسبه القاتل عمرا فقتله. "فأراد عمرا وأراد الله خارجة". وقامت دولت بني أمية من سنة ٤١ إلى سنة ١٣٢ (٦٦١ – ٧٤٩).

كان الخوارج – مع خطيئتهم – عربا خلصا، تظهر البساطة والأصالة في مبادئهم. يوادعون العدو وهم يحاربون حتى يصلوا. وكانوا يأخذون الناس وأنفسهم بالشدة ويؤاخذون عليا لعدوله عن حكم الله إلى التحكيم. ويؤاخذون عثمان بعد سنوات ستة من حكمه، ومعاوية وعمرا. ويردون أحاديث الصحابة الذين ليسوا مثلهم. ثم انقسموا فرقا، جملة نظرياتها أن الخلافة بانتخاب حربين عامة المسلمين، وأن الإيمان عقيدة وعمل وورع وتضحية نفس.

قال عبد الملك بن مروان بعد محاورة واحد منهم: لقد كان يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم. وقال عمر بن عبد العزيز نفسه لمن جادله منهم: (إني قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لدنيا أو متاع. و لكنكم طلبتم الآخرة فأخطأتم سبيلها).

الشيعة:

صالح معاوية الحسن بن علي ثم نكث. وأخذ العهد لوالده يزيد بالسيف. ولم يكد يهلك حتى خرج الحسين وقتل في كربلاء سنة ٦١ فأرث النار في قلوب المسلمين، وبخاصة المتشيعين لعلي، ومنهم كثيرون فرس الأصول. وكانت (شاه زنان) إحدى بنات يزدجرد آخر الأكاسرة زوجة للحسين، فرأى الفرس أولاد الحسين وارثين لملوكهم وهم يعتقدون مبادئ الحق الإلهي للملوك، ومنها أن الملك يورث واختلط التفكير الفارسي في نظرية الدولة بالحب لعلي وأبنائه فصار مذهبا مكنت له الوارث التي كرثت أهل البيت. وتوالت انتفاضات الشيعة ضد الأمويين. وتعاقبت فتكات الأمويين بهم. حتى إذا تقلد المقاليد بنو العباس كانوا أشد نكالا ببني عمومتهم.

وانشعب المتشيعون لعلي، فصاروا شيعا: أجاءوا كلهم عليا بعد النبي مباشرة. لا يجعلون بينهما إلا رتبة النبوة. وأجمعوا أن الإمامة لعلي ثم ولديه الحسن والحسين، ثم ينقلها فريق إلى أخيهما – من غير فاطمة الزهراء – محمد بن الحنفية. وينقلها الآخرون من الحسين إلى أبنائه، علي زين العابدين فابنه زيد أو ابنه محمد الباقر فابنه جعفر الصادق، ثم ينقسمون: فمنهم "الإسماعيلية" نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ومنهم الخلفاء الفاطميون. ومنهم "الاثنا عشرية" يسلسلون أئمتهم إلى اثني عشر إماما.

وفي الإمام عندهم قبس إلهي قالوا إنه نقل من النبي لعلي ومن علي إلى من بعده. والإمام ممتاز بين البشر، قيم على الناس، معصوم، وهو المشرع الوحيد. وهم يؤمنون بالتقية أي إظهار ما لا يبطنون اتقاء للمكروه.

ويمتاز فقههم بأنه يقوم على أحاديث منسوبة إلى أهل البيت.

والشيعة الزيدية يحصرون الإمامة في أولاد علي من فاطمة، ولا يكفرون أبا بكر وعمر. وعلي أفضل الصحابة عندهم.

وقد رفض شيعة العراق مذهب الزيدية لأنه لم يتبرأ من أبي بكر وعمر. وسموا رافضة لذلك، أو لرفضهم إجماع الأمة على أبي بكر وعمر.

وانقسم الرافضة أقساما منها المهدية يقولون برجعة الإمام المنتظر.

المعتزلة:

اعتزل واصل بن عطاء أستاذه الحسن البصري، وانضم له آخرون فسموا "المعتزلة" لذلك، أو لأنهم اعتزلوا سائر المسلمين. ولم يسلم المعتزلة من الانقسامات الداخلية. وباعدت طريقتهم بينهم وبين الجمهور فبدعهم. فمن مبادئهم أن: من رأى منكرا فعليه أن يغيره بلسانه، فإن لم يستطع فبيده، وإلا فبالسيف. فساروا في الناس سيرة قسوة. وخرجوا بذلك على مبدأ حرية الفكر. كما صنعوا في محنة خلق القرآن.

وهاجموا القائلين بالجبر، وغالبية الشيعة، والمارقين من الخوارج والمرجئة، وأنزلوا الصحابة منزلة سائر الناس.

لكنهم مكنوا لعلم الكلام ليردوا على أعداء الإسلام بأدلة عقلية لا نقلية من النصوص، فالذين لا يؤمنون بالإسلام لا تحجهم نصوصه.

يقولون: إن معنى التوحيد أن الله منزه عن المثل لا تنفصل عنه صفاته. وإن الإنسان حر يختار أفعاله. ويتوقفون في الحكم على أصحاب الجمل وصفين، وعلي وعثمان وخاذليه – فثمت – في رأيهم فريقان أحدهما مخطئ، غير معلوم.

والكبيرة عندهم ما نزل فيها وعيد. ومنها ما يصل إلى الكفر. ومنها ما هو أقل. ويقول أكثرهم بوجوب وجود الإمام (الخليفة) وبعضهم يراه واجبا بانتخاب شعبي وبعضهم يرى أن يكون من قريش.

وكان منهم أكبر الكتاب ضد الزنادقة، كواصل، له كتاب: (الألف مسألة) للرد على المانوية. ومنهم أبو الهذيل العلاف. ألف سبعين كتابا في الرد على الزنادقة وعاش مائة عام

(١٣٥ – ٢٣٥) في الدفاع عن الإسلام، وأسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل، وله كتاب اسمه (ميلاس) باسم مجوسي أسلم على يديه. ومنهم الجاحظ مات عن سن عالية (١٦٠ – ٢٥٥) وكان أمة وحده.. أبدع كل في علم. ونقد أرسطو قبل روجير بيكون ببضعة قرون. وبهذه الطبقة من العلماء وتلاميذهم الجهابذة تبوأ المعتزلة مكانتهم.

المتكلمون:

الكلام عند ابن خلدون (علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية، بعد فرضها صحيحة من الشرع، بالأدلة العقلية. والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة).

خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بالفلسفة بعد ترجمة الكتب اليونانية، ليستعملوا أسلحة خصوم الإسلام ضدهم. واستعملوا الأدلة العقلية لا الأدلة النقلية المستندة إلى النصوص، أو التي تخاطب الإحساس. فأولوا آيات الجبر والآيات التي تشير إلى الجسمية والمكان، كاستوائه سبحانه على العرش. واختلفوا مع الجمهور، في مسألة خلق القرآن.

قالوا: إن القرآن كلام الله والكلام محدث من الذات الإلهية. والآيات تفيد ذلك "إنا أنزلناه" و"ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها" فالقرآن عندهم مخلوق. أما أهل السنة فيؤمنون بالآيات كما نزلت. فالله سبحانه "ليس كمثله شيء" – والصحابة لم يتعرضوا للمعاني وهم صفوة المسلمين. فمن يفتحون أبواب الجدل في المعاني "أصحاب بدعة"، وسيجئ بعد، من يتوسطون فيقولون: إن الكلام معنى نفسي يعبر عنه بالألفاظ – فالمعنى النفسي القائم بذاته قديم، أما القرآن بمعنى المقروء فهو مخلوق.

ودخلت في محيط الكلام كل المسائل الخلافية بين المفكرين، مثل الجبر والاختيار، والإيمان أهو قول أم عمل، والخروج على السلطان الجائر، واستعمال السيف دفاا على العقيدة، ونظريات الخلافة، وتفضيل علي أو غيره.

المرجئة:

لم ينضم بعض الصحابة إلى أي من الفرق بعد مقتل عثمان، مثل سعد بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر. فوجدت نظرية الحياد. ثم صار الحياد مذهبا فكريا هو إرجاء الحساب حتى يوم القيامة.. ولا كبيرة مع الاستغفار. قالوا: يكفي للتدليل على وجود الإيمان كاملا الإقرار بالشهادتين [٤٢] ولا يجب للتدليل عليه القيام بالأعمال الواجبة بالأوامر الدينية، وتاركها ليس بكافر، بل الناس يزوجونه ويرثهم ويرثونه. وتمادى بعضهم واكتفى بالتصديق بالقلب دون الإقرار باللسان.

ولما قتل أسامة بن زيد عباس بن نهيك بعد أن قال (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، إذ رأى أنه نطق بالشهادة تعوذا من القتل، قال النبي: كيف أنت إذا خاصمك يوم القيامة بلا إله إلا الله؟ فتمنى أسامة لو أن إسلامه كان يومئذ.

قال قائل للنبي يوما: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: قل آمنت بالله، ثم استقم.

---

(٤٢) راجع في نظرية أبي حنيفة في الإيمان، وأثرها العظيم في المسلمين (أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام) للمؤلف – طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

القدرية:

قال بالقدر معبد الجني وقد قتله الحجاج لسبب سياسي، هو خروجه مع ابن الأشعث سنة ٨٠ بدمشق. كان يقول إن الإنسان حر الإرادة. يصنع أفعاله، ويقدرها بعلمه وإرادته، وينفذها بقدرته.

وقال قوله غيلان الدمشقي. جادله عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالا فهديتني، والله لا أتكلم في شيء من هذا أبدا. فلما مات عمر. عاد غيلان يسيل في الأمر سيل البحر.

الجبرية:

يقولون إن الله قدر أعمال العباد في علمه وأرادها بإرادته وأنفذها بقدرته. واشتهر عنهم أن قدرة العباد مسلوبة واختيارهم ظاهري، فهم مجبورون. وهذا كذب على الله.

سأل عمر سارقا: ما حملك على السرقة. قال قضاء الله وقدره.. فضربه ثلاثين سوطا وقطع يده؛ وقال قطعت يدك لسرقتك، وضربتك لكذبك على الله.

والمعتزلة يقولون إن الله أحاط علما بما سيقع أو لا يقع من أفعاله وأفعال العباد. وهو يريد أفعاله ويخلقها كما علم. أما أفعال العباد فقد فوض الأمر فيها يفعلون ما يشاءون. وهو يعلم ما يفعلون من خير أو شر، وينذرهم عقوبته أو مثوبته.

والطائفتان من المعتزلة والجبرية مسلمون وإن خطئوا الطريق.

أما القدرية فيقول فيهم عبد الله بن عمر: (إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أنني برئ نهم وهم براء مني. والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر).

أجل.. إنما نحن نسعى والله يرزق. ولا تفويض صرف ولا جبر صرف. ومبالغة أهل الجبر تجعل التكليف صوريا! ومن الإيمان الإيمان بالقدر خيره وشره.. وأن مشيئتنا في العمل لا تكون من دون الله سبحانه.

العلوم الأدبية واللغة والتاريخ

كانت بغداد ملتقى مدرستي الكوفة والبصرة لتدوين الأدب العربي واستنباط قواعد اللغة. وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى الخليل بن أحمد الذي نزح العبارة من بحوره – وسيبويه (١٨٠) والكسائي والفراء وأضرابهما أو تلاميذهما – دع عنك رجال الأدب الذين قد يحصون، ولكن تلاميذهم لا يحصون. وفي الفترة ذاتها وجاء المؤرخون الكبار.. فبعد طبقة أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وشرحبيل بن سعد ووهب بن منبه جاءت طبقة القرن الثاني ومنها ابن شهاب الزهري وعاصم بن قتادة وعبد الله بن حزم الأنصاري (١٣٥) وموسى بن عقبة (١٤١) وابن إسحاق صاحب المغازي (١٥١) ومعمر بن راشد، ثم الواقدي (٢٠٧) وابن هشام صاحب السيرة (٢١٣) والمدائني (٢٢٨) وابن سعد صاحب الطبقات (٢٣٠).

العلوم الأجنبية:

دعا خالد بن يزيد بن معاوية (٨٥هـ) ٧٠٤م المفصحين بالعربية من مصر فنقلوا كتب الصنعة – الكيمياء – من اللسان اليوناني. فكان أول نقل في الإسلام. ونقلت له أو لمروان بن الحكم كراسات أهرون الطبيب الإسكندري. وكان خالد قد جاء إلى مصر مع مروان سنة ٦٤. وأمر عمر بن عبد العزيز بعض الروم فنقلوا كتابا في الطب إلى العربية أخرجه للناس بعد تردد. وجاءت دولة بني العباس فشجع المنصور الترجمة من السريانية والهندية واليونانية والقبطية. وقيل إنه كلف الفزاري بترجمة كتاب الفلك الهندي "السدهنتا" أو السند هند الكبير. كما يسميه.

وفي عصر المهدي تعرف العرب على الأدب اليوناني فاستقبحوه لوثنيته. ثم جاء الرشيد فأدار عجلات الترجمة بقوة، وأنشأ دارا كبيرة للكتب. وكان يأتي بكتب الروم في غزواته أو معاهداته لترجمتها، في حين لم يكن أصحابها يعرفون بما بها.

وأقام المأمون مرصدين في بغداد وصحراء تدمر قرب دمشق. وسمي دار الكتب دار الحكمة. انطلق يساعد النقلة حتى أنشأ واحد منهم (حنين بن إسحق) مدرسة خاصة به للترجمة. وكان المأمون يدفع فيها يترجمه حنين بنفسه وزن الكتاب ذهبا..!

ولما علم المأمون أن بصقلية مكتبة طلبها من أميرها الرومي لترجمتها فتوقف. فأنذره فوصلت.

وبلغ دخل أولاد موسى بن شاكر، الذين رباهم المأمون، أربعمائة ألف دينار يغدقون منها على العلماء والتراجمة لحسابهم. وكان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم، يعطي الناسخين ألفي دينار في الشهر لينسخوا لحسابه.

العلوم الرياضية والطبيعية:

استعمل العرب الورق للكتابة على نطاق واسع ابتداء من القرن الثاني للهجرة – وفي أثنائه بدأت العلوم الرياضية والطبيعية في بغداد بداية عالمية، بفحول عالميين.. والتواصل جلي حتمي، بين النهضة العلمية وبين النهضة الفقهية، فكلاهما نتاج نهضة علمية انبثقت من الدين الذي صنع هذه الأمة. ووجهها إلى البحث في كل فن وضرب. وحسبنا، في هذا المقام، أن نذكر معاصري الشافعي:

١ – **جابر بن حيان:** ولد في سنة ٧٢١ أو ٧٢٢م – أي في فاتحة القرن الثاني للهجرة وتعلم على كتب الكيمياء المترجمة لخالد بن يزيد، وعلى الإمام جعفر الصادق إمام الشيعة، فشملته نفحات الإمام وكان يحلف به [٤٣]. وتجلت طريقته العلمية في تعبير من تعبيراته (عملته بيدي – وبعقلي – وبحثته حتى صح – وامتحنته فما كذب). وهي طريقة العرب تعلمتها أوربة عليهم في كل العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والطبية. ولهذا يدعوه الرازي (الطبيب) والرياضية والفلكية والطبية. ولهذا يدعوه الرازي (الطبيب) أستاذنا. ويقول عنه علماء الغرب: إنه أول من يستحق لقب الكيميائي.

---

(٤٣) الإمام جعفر الصادق (٨٠ – ١٤٨) = ٧٠٠ – ٧٦٥ يمثل صميم الإسلام. يجتمع في نسبه النبي عليه الصلاة والسلام وأبو بكر وعلي. وهو إمام في الدين والفقه وبحر في العلوم الطبيعية.

استقبل جابر في بلاط الرشيد. وسيره الرشيد إلى القسطنطينية لإحضار الكتب لترجمتها. وقد قيل إنه في أخريات أيامه قرب المأمون إلى علي الرضا (حفيد الإمام جعفر) الذي صيره المأمون ولي عهده، وإنه عاش خمسة وتسعين عاما.

٢ – **الخوارزمي:** ولد في القرن الثاني ومات سنة ٢٣٢ – دعاه المأمون في خوارزم إلى بغداد حيث أقام مرصدا للنجوم، وولاه عملا في بيت الحكمة ليستمر في كشوفه التي أبلغت الحضارة العلمية العالمية أوجها. بأمرين عظيمين في تاريخ الإنسانية، عاديين في حياة رجل! قد أحسنت أوربة استعمالهما: أولهما أنه كتب الحساب بالأرقام الهندية فصيرها عربية. وثانيهما أنه اخترع علم الجبر وكان من علماء الفلك العظام. له جداول رياضية وفلكية خالف فيها السابقين من فرس وهنود.

راعي في ميل الشمس مذهب بطليموس في كتاب (المجسطي) الذي بقي معمولا به حتى كوبرنكس سنة ١٥٣٠ للميلاد (٤٤).

---

(٤٤) ولم يكن من سبيل للعمل به إلا كتب العرب التي فقلته إلى كل العصور منذ نقل كتاب (السنتكس) تحت اسم كتاب المجسطي. وقد نقده فيما بعد جابر بن الأفلح في كتاب أسماه إصلاح المجسطي. وكانت النظرية العربية – ويوافقها القرآن – أن الشمس لا الأرض مركز الكون، في حين كان بطليموس يرى أن الأرض مركز الكون. وكانت النظرية العربية أن الأرض جسم كروي سابح في الفضاء. وكروية الأرض حقيقة عربية عبر عنها ابن طفيل (توفي سنة ١١٨٥م) بأسلوب أدبي في رسالة (حي بن يقظان). وما يزل كثير من المصطلحات الفلكية وأسماء النجوم عربية في كل اللغات الأوربية.

نقل الأوربيون من كتبه الأرقام العربية فراعتهم سهولتها. في حين كانت الأرقام الأوربية إذ تكتب بالحروف اللاتينية عسرة الاستعمال، يستحيل استخدامها في الأرقام الكبيرة على ما نعرف الآن. فسهلت عليهم كل عمليات الحساب والمعادلات والمتواليات ليصلوا بالحساب إلى غير حدود، فتسابقوا إلى نقل كتبه منذ القرن السابع للهجرة. وبقيت المرجع الوحيد لأوربة حتى القرن السادس عشر للميلاد.

وإلى علامة الصفر (٠) والكسور العشرية التي كشفها العرب، يرجع الفضل في بلوغ علوم الحساب والرياضيات العالمية مبلغها في عصورنا الحالية.

ألف الخوارزمي كتاب الجبر والمقابلة بتشجيع المأمون، كما قال في صدر كتابه. وما يزال الاسم العالمي للجبر هو الاسم العربي l'Algébre إقرارا بالفضل للغة العربية وللخوارزمي ذاته، مثلما أن كلمة (فولت) تحية لالساندر وفولتا، وكلمة وات تحية لجيمس وات، وكلمة رونتجين تحية لوليم كونراد رونتجين، وكلمة أمبير تحية لاندرية ماري أمبير، مع فارق ضخم، هو أن الجبر علم بتمامه وليس مجرد باب من الأبواب أو مبدأ أو اختراع[٤٥].

---

(٤٥) الإنجليز يستعملون كلمة (جورزم) بدلا من خوارزمي فكتاب إسكندر فيلاردي يسمى (كارمن دين الجورزمو) وكتاب يوحنا الهاليفاكسي أو (جون أف هاليفاكسي) يسمى الجورزمي. والكتابان في الحساب.

يقول كاجوري مؤرخ الرياضيات: إن القوى المجيبة في علم الحساب تعزى إلى الأرقام العربية الهندية والكسور العشرية واللوغاريتمات. ولكن البحث لم يقف عند هذا الحد، فقد استمر العلماء يبحثون ويحاولون كشف أسرار جديدة عن نشأة الكسور العشرية وإلى من يرجع الفضل الحقيقي في ذلك. وأخيرا أعلن العالم الرياضي بول لوكي في سنة ١٩٤٨ أن اختراع الكسور العشرية يرجع إلى غياث الدين جمشيد الكاشي الذي توفي

٣ – **الكندي**: عنوان الحضارة العربية (١٧٥ – ٢٥٢) كان أبوه أميرا على الكوفة، فلما ترعرع درس الفلسفة ومارس الطب. وصارت له مكتبة كبيرة تسمى "الكندية". كما صار مؤدبا لابن المعتصم. ومال في أغلب أمره إلى الرياضيات والفلك – وعرف أنه واحد من كبار الفلكيين في العالم، إلى جوار أنه كان كاتبا وشاعرا يساجل أبا تمام في مجلس المعتصم! ويجيد السريانية واليونانية. وله رسائل في صناعة الساعات وطريقة نصبها، وفي الكيمياء، وفي (إبطال دعوى من يدعي صنعة الذهب والفضة) وفي التقطير، وكان يقرر ضرورة دراسة الرياضة حتى تفهم الفلسفة عن دراية لا عن رواية.

وهي نظرية علماء مدرسة الإسكندرية ونظرية إفلاطون.

عدد له ابن النديم عشرات المؤلفات منها رسالة فيها أن كل ما في للعالم كروي الشكل.

واستخدم الفرجار لقياس الزوايا الهندسية، وقاس أثقال السوائل، وأجرى تجارب جاذبية الأرض، قبل إسحق نيوتن بثمانمائة عام.

ولئن كانت الفلسفة تمثل حضارة الأمة إن الكندي، وهو العربي الخالص العروبة، مثل علي أن حضارة الإسلام حضارة علمية، تستفيد من العلم وتفيده، وتدلل بالدلائل على أن للعالم خالقا خلقه. فلا عجب أن سمي فيلسوف العراب. يقول فيه جليوم كاردانو الإيطالي (١٥٧٦): (هو واحد من الاثنى عشر عبقريا الذين ظهروا في العالم).

حوالي سنة ١٤٣٠ – وقد سبق ستيفن البلجيكي بمائة وستين عاما وله مؤلفات رياضية منها مفتاح الحساب. ومنه نسخ مخطوطة بمكتبة ليدن وبمكتبة جامعة برنستون.

حسبنا في هذا الباب هذه الأسماء الثلاثة من معاصري الشافعي في حياته، مظهرا لبداية عصر العلوم الطبيعية والرياضية التي ازدهرت في القرون التالية، لتسلم اللواء إلى الحضارة المعاصرة وقد انتفعت أكبر انتفاع برياضيات عربية، وعلوم طبيعية عربية، ترجمت إلى الجماعات الأوربية [٤٦].

---

(٤٦) أساتذة أوربة:

إليك بعض الأسماء: الرازي أو جالينوس العرب (٢٤٠ – ٣٢٠) كبير أطباء مستشفى الري. ترجم كتابه في الطب (الحاوي) لملك صقلية سنة ١٢٧٩، فبقي مرجعا لجامعات مونبلييه وباريس وكل أوربة حتى القرن السادس عشر. وصورته معلقة اليوم على جدران جامعة باريس مع صور ابن سينا وابن زهر جراح العظام – وبجامعة برنستون جناح مخصص لآثار، وبعض المال لنشر المخطوطات العربية.

والفارابي فيلسوف المسلمين (٢٥٠ – ٣٣٩) وابن الهيثم (٤٣٠) أعظم علماء العصور الوسطى في الطبيعة، نقل عنه روجير بيكون وكيلر وليوناردو دافنشي بايعت له أوربة أنه مكتشف علم الضوء وخطأت معه نظريات بطليموس وإقليدس أن العين ترسل أشعة بصرية وأخذت بقوله إن الحسم المرئي يرسل الأشعة.

ثم الزكلي (١٠٢٨ – ١٠٨٧م) وقد ذر، كوبر نكس مع البتاني في كتابه المشهور Du Revbolu tionibus Orbum celestium.

وعرفه الأوربيون تحت اسم: Arzachel

والبيروني (٣٦٢ – ٤٤٠: ٩٧٣ – ١٠٤٨) يقول عنه سخاو إنه (أكبر عقلية في التاريخ) تدين له أوربة، بنظرية أن الشمس مركز الكون، قبل كوبرنكس بخمسة قرون، وبمعلوماتها عن الهند وبتجارب الوزن النوعي.

وابن سينا: الرئيس (٣٧١ – ٤٢٨ – ٩٨٠ – ١٠٣٧) عمل في القضاء وألف في الطب والطبيعة والموسيقى والفلسفة والرياضيات والكمياء. ترجم كتابه (القانون) في الطب إلى اللاتينية مرات. وظل يدرس في جامعات

الفصل الثاني

في سبيل وحدة فقهية

أوربة حتى العصور الحديثة وطبع ١٥ مرة بين سنتي ١٤٧٣ و١٥٠٠ – وشغلته الفلسفة. قال عنه سارتون (إن فكر، يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى).

وابن رشد (٥٢٠ – ٥٩٥: ١١٢٦ – ١١٩٨م) وتوافقه العجيب مع كتابات القديس توماس الإكويني الدينية يثني بالنقل عنه. والواقع أن نشاط توماس كان انعكاسا واضحا لكتب عربية للغزالي وابن رشد، ترجماتها في متناوله بجامعتي باريس ونابولي حيث درس، أو بلاط ملك صقلية الذي التحق به، وكان البلاد يجيد العربية. وكان توماس الإكويني الكبير – عمه – سفيرا إلى بلاط الملك الكامل، ومنحاه ومنحى ابن رشد متفقان في الطريقة والنتيجة وهي أن العقل يتفق مع العقيدة.

وتتابع ركب العلماء قرنا قرنا، حتى تسلمت اللواء منهم أوربة الحديثة. ففي القرن السادس: الخيام، وابن باجة، وابن طفيل، وفي السابع: نصير الدين الطوسي وفي الثامن: الطيبي وابن الهاشم وفي التاسع: غياث الدين بن جمشيد والمارديني والقلصادي وفي العاشر: ابن حمزة المغربي – وفي الحادي عشر: ابن القاضي والروداني وغيرهم. ممن علمهم هؤلاء أو تعلموا على تلاميذهم.

كان روجير بيكون فيلسوف أوربة (١٢١٢ – ١٢٩٤) من أوائل الذين درسوا علوم المسلمين في باريس وأكسفورد – بعد إذ ترجمت من نحو قرنين على طريقين هما الأندلس وصقلية. وتم الاتصال الوثيق عن طريق ثالثة هي طريق الحروب الصليبية.

وهو من أوائل المبشرين بالطريقة العلمية العربية: طريقة، "الملاحظة والاختبار ثم الاستخلاص" وجاء بعده فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) فاتبع منهاجه.. وادعى الأوربيون فيما بعد أن هذه الطريقة التي نقلوها إنما هي "كشف أوربي".

قدم الشافعي بغداد سنة ١٩٥ ليبقى فيها عامين كاملين. وكان طبيعيا أن يقصد، أو قدومه، إلى مقابر الخيزران حيث دفن الإمام الأعظم (أبو حنيفة) ويصلي ركعتين، ولا يرفع يديه. سئل لماذا خرج عن قواعده إلى قواعد أبي حنيفة؟ قال أدبا مع هذا الإمام أن أظهر خلافه بحضرته.

وكان يجئ إلى قبره ويقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة.

وهذا الأدب في الإشارة والعبارة والزيارة، دروس في الوفاء والتواضع، وعلامات إحساس رفيع من صاحب الفكر الحي نحو صاحب الفكر الذي قضى.. ونحو المسلمين الذين لا ينقضون إلى يوم الدين.

وسيتكرر منه الوفاء ذاته لأستاذ آخر في بلد آخر في أخريات أيامه، عندما يدخل مصر فيقصد إلى قبر الليث بن سعد.

وسيتكرر إذ يضع كتابه خلاف مالك ويحبسه عن النشر عاما كاملا يستخير الله في حبسه أو إصداره.

نزل أول قدومه في دار محمد بن أبي حسان الزيادي، وكانت دار أبيه دار علم وكتب. فأبو حسان (الحسن بن عثمان الزيادة) كان قاضيا فاضلا ناسبا جوادا، يعمل الكتب وتعمل له الكتب، وله خزانة حسنة كبيرة. وسيمتحن فيما بعد، في محنة خلق القرآن.

وكانت بغداد قد خلت من بهجتها إذ خبا نجمها محمد بن الحسن من ست سنين.. وقضى الرشيد نحبه من عامين. وتولى الخلافة محمد الأمين.

لم تأخذ الشافعي خلافات بغداد أخذ الفجاءة.. فلقد مرت به كل السحب وتقشعت. فحدد من كل شيء مواقفه بأمور أصولية، كدأبه، تستغرق كل المشاكل والمسائل.

فأما الجدل الكلامي من المعتزلة والمتكلمين فخطر على عقائد المسلمين.. ينهي عنه.. ولما قال له قائل: القرآن مخلوق، قال: كفرت بالله العظيم..

وسأل سائل: ما تقول في حديث الرؤية؟ قال له: اقض علي سواء كنت حيا أو ميتا: إن كل حديث يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإني أقول به وإن لم يبلغني.

أما عن الجبر والقدر والإرجاء فهو يصدع بقوله تعالى: "وما تشاءون إلا أن يشاء الله" فالمشيئة له دون خلقه: وإن مشيئتهم لا تكون دونه. وفحوى هذا القول أن صدور الفعل من العبد موقوف على أن يحصل في قلبه مشيئة الله لذلك الفعل، وحصول تلك المشيئة ليس بمشيئة أخرى من فعل العبد. والناس لم يخلقوا أعمالهم بل هي خلق من الله عز وجل ولكنها كذلك فعل للعباد.

خطب علي الناس.. فقام رجل ممن شهد معه وقعة الجمل فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر فقال: بحر عميق فلا تلجه. فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر فقال. سر الله فلا تبحث عنه. فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر.

قال: لما أبيت: أمر بين أمرين. لا جبر ولا تفويض.

فقال: يا أمير المؤمنين إن فلانا يقول بالاستطاعة. وهو حاضر. قال: علي به.. فأقاموه فلما رآه قال: الاستطاعة تملكها مع الله أو دون الله؟

فإياك أن تقول أحدهما فترتد.

قال: فما أقول يا أمير المؤمنين؟

قال: قل أملكها مع الله الذي إن شاء ملكنيها.

وكان بطل الأبطال في كل نزال يقتل من يبارزه. رووا أنه كان إذا هب للمبارزة قال:

أي يـــومي مـــن المـــوت أفـــز يـــوم لا يقـــدر أم يـــوم قـــدر
يـــــوم لا يقـــــدر لا أرهبـــــه ومـــن المقـــدور لا ينجـــو الحـــذر

وأما عن الإيمان والإرجاء فالإيمان عند الشافعي قول وعمل. يزيد وينقص. وقال لا يحتج على أهل الإرجاء بآية أقوى من قوله تعالى ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ** ﴾.. ومعنى هذا أن الدين هو الأعمال التي بها الإسلام، والله تعالى يقول: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ وإذا كانت الأعمال تزيد وتنقص فالإيمان يزيد وينقص بزيادة الطاعات ونقصها. يقول تعالى ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً** ﴾.

أما موقفه من الخوارج والشيعة فيحدده إعظامه للخلفاء الراشدين الأربعة (أبي بكر وعمر وعثمان وعلي) يقول: (رضي الله عنهم أجمعين) ويؤيد بالاحتجاج لإمامة أبي بكر وعمر بحجج كثيرة.

ومع هذا الوضوح في موقفه يصفه يحيى بن معين المحدث في بغداد بأنه رافضي، لأنه لم يذكر في (كتاب السير) إلا علي بن أبي طالب.

قال أحمد بن حنبل ليحيى: يا عجبا لك. فيمن كان يحتج الشافعي في قتال أهل البغي؟ فإن أول من ابتلي من هذه الأمة بقتال أهل البغي هو علي بن أبي طالب! فخجل يحيى.

وسيمضي الدهر فيقول يحيى بخلق القرآن، تقية، وينفطر قلب ابن حنبل حزنا. ومع فيحيى بن معين نفسه يقول في الشافعي: (لو كان الكذب مطلقا لمنعته مروءته عن أن يكذب).

***

قرأ الشافعي كتب أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن، وناقش العراقيين بمكة وعلمهم، وناظر القادمين إليها من كل أرجاء العالم بمذاهب الآخرين وعلمهم ما انتهى إليه في مناهجه التي ستحتويها كتبه، وحوت بعضها الرسالة التي أرسلها إلى ابن مهدي، لتمسي مع سائر الكتب أسسا للتفكير القانوني الإسلامي، وموردا من موارد الشرائع الإنسانية.

لم يعد يكفيه أن يعالن الناس برأيه، ولا يأس أن يقبلوه أو يردوه، فإن ما ركب في طبعه من الكفاح قد دفعه إلى منازلة معارضيه، وفي ميادينهم في بلدانهم. وبهذا الخلق الإيجابي نذر نفسه للترحال إلى أي مكان تسنح فيه بارقة للإفادة أو الاستفادة.

وفي حين لم يبرح مالك الحجاز، ولم يبرح أبو حنيفة العراق إلا بين الحجيج، يترامى الاغتراب بالشافعي متعلما ومعلما لنشر مذهبه، فلما تلاقى بالأمة الإسلامية في بقاعها عامة وحفظ علومها كافة، راح يشرع لها أسباب وحدتها الفكرية، وأملى كتبه بنفسه، ولم يترك آخرين يقومون بالتدوين مستقلين. وكتب بيده. وتميزت أعماله بثبوتها عنه، وبضخامتها، ووضوح الفكر الواحد، في شتى القواعد. وتميزت بالاستقلال الفكري عمن سبقوه وبالسعي إلى الوحدة بالتزام القاعدة.

كانت مدرسة أبي حنيفة بالكوفة قد فتحت الأبواب على مصاريعها للاجتهاد، وردت الكثير من الأحاديث، فوجب على العالم القرشي أن يبين وجوه الاحتياط من مخاطر هذه الطريقة على الحديث والسنة واستنباط الأحكام من آيات الكتاب. ولابد لذلك من قواعد علمية يسير عليها المتفقهون.

وكان القياس أكبر الكشوف في فقه أبي حنيفة، يضاف إليه الاستحسان والعرف، في حين كانت السنن والآثار وعمل أهل المدينة، حجر الزاوية في فقه مالك يضاف إليها المصالح المرسلة.

ولقد وجد في بغداد صورة كاملة للمدرستين الفكريتين من أصحاب الحديث وأصحاب الرأي. الأولون يحفظون الأخبار والسنن حقا ولا يجتهدون إلا في النازلة إذا نزلت.. فإذا أورد عليهم أصحاب الرأي سؤالا أو إشكالا وقفوا عند حدود النصوص. أما أصحاب الرأي فكانوا أصحاب النظر والجدل. وهم ليسوا كأصحاب الحديث معرفة بالآثار والسنن.

والفرقتان لا تعرفان مثل ما يعرف محمد بن إدريس من أدلة الشرع من الكتاب والسنة.. وكان أعلم منهم بلغة الكتاب والسنة، وأبصر بالمعاني، وأقوى جدلا.

فجاءهم يقول: الاجتهاد واجب في الشريعة: والاجتهاد هو القياس. بأن يلحق الأمر غير المنصوص على حكمه بالأمر المنصوص، فالرأي في هذه الحالة حمل على النص وليس بدعا في الشرع. أما الاستدلال المرسل أو التعليل المطلق للأحكام، من غير البناء على أساس، فهو البدع في الشرع. ثم وضع الشافعي للقياس ضوابطه وموازينه حتى فاق الحنفية في تحريره وإثباته.

ولم ينج الذين لا يلتزمون الموازين من تصويراته الرمزية. يقول فيهم "ما أشباه أصحاب الرأي إلا بخيط سحارة. تمده هكذا فيجئ أصفر. وتمده كذا فيجئ أخضر" ويستطرد بريشة الرسام أو تعبيرات الشاعر، فيروي عن أيام القدمة الأولى إلى العراق: ".. قدمنا على هرون.. ومعي خمسون دينارا.. ومحمد بن الحسن يومئذ بالرقة. فأنفقت الخمسين دينارا على كتبهم، فوجدت مثلهم ومثل كتبهم مثل رجل كان عندنا يقال له فروخ، وكان يحمل الدهن في زق له. فكان إذا قيل له: عندك فرشنان؟ قال: نعم. فإن قيل له: عندك زئبق؟ قال نعم. وإن قيل له عندك خيزي؟ قال: نعم. فإن قيل له أرني – وللزق رءوس كثيرة – فيخرج له من تلك الرءوس. وإنما هي دهن واحد! كذلك وجدت كتاب أبي حنيفة. إنما يقولون كتاب الله وسنة نبيه، عليه الصلاة والسلام، وإنما هم مخالفون له".

وعندما يصنع الشافعي صنيعه في بغداد سيلقبونه "ناصر الحديث" كمثل ما ستسميه العصور اللاحقة "واضع علم الأصول". يقول الفخر الرازي (نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطاليس إلى علم المنطق، وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض. وذلك لأن الناس كانوا قبل أرسطاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة.. فلما رأى ذلك أرسطاليس اعتزل الناس مدة مديدة استخرج فيها علم المنطق ووضع للخلق بسببه قانونا كليا يرجع إليه في معرفة الحدود والبراهين.. وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون أشعارا وكان اعتمادهم على مجرد الطبع. فاستخرج الخليل علم العروض فكان بذلك قانونا كليا في معرفة مصالح الشعر ومفاسده. كذلك الناس ها هنا كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل أصول الفقه ويستدلون ويعترضون بدون قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة).

كان الفقه الإسلامي بحاجة إلى المنهج. فالمنهج يعمل على المعجزات دون خوارق. وحسبه أن تجري القرائح على سننه لتنتج الصواب باستمرار، ودون ارتجال. كمثل ما تصنع القضبان للقاطرات، تضاعف سرعتها وتضمن سلامتها وقوتها وقدرتها على الخدمة، واستمرارها في الجريان ما شاء الله.

كان منهاج الشافعي لازما لفقه أبي حنيفة نفسه وطريقته في العمل بالرأي أو القياس. وكان لازما لفقه مالك نفسه وهو كيف يعمل النصوص والسنن.

وتعددت كتب الشافعي في الأصول وأولها "الرسالة" ومنها كتابه "أحكام القرآن" وكتاب "اختلاف الأحاديث" وكتاب "إبطال الاستحسان" وكتاب "جماع العلم" وكتاب "القياس" وغيرها.

والحق أنه إذا كانت الحضارة الغربية تقوم على الفكر الأرسطي من علوم مدرسة أرسطو، فإن "الأصول" التي وضعها الشافعي قد نظمت التفكير الفقهي في الحضارة التشيرعية في الإسلام.

***

رأت بغداد إماما هو قمة في تواضعه، قدوة في إخلاصه. كلما أورد عليه سؤال، أجاب إجابة شافية بحجة من الكتاب أو حجة من السنن أو من تفسيرها، في صوت خفيض مهيب. قال ابنه أبو عثمان محمد: ما سمعت أبي يناظر أحدا قط فيرفع صوته.

يقول أستاذ بغداد أبو يوسف: (يا قوم أريدوا بعلمكم الله، فإني لم أجلس مجلسا قط في الناس أنوي فيه أن أعلوهم، إلا لم أقم حتى أفتضح) والشافعي يقول: "ما ناظرت أحدا قط على الغلبة" ويقول: "ما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطئ" ويقول: ما ناظرت أحدا قط إلا على

النصيحة" ويقول "ما عرضت الحجة على أحد فقبلها إلا عظم في عيني ولا عرضتها فردها إلا سقط في عيني".

وبهذا المعيار يأخذ نفسه، فيقول لإسحق بن راهويه: لو كنت أحفظ كما تحفظ لغلبت أهل الدنيا. بل هو ينصف أصحاب السنن من نفسه فيروي عنه أحمد بن حنبل قوله: أنتم أعلم بالحديث مني، فإذا صح عندكم الحديث على النبي صلى الله عليه وسلم خلاف قول فخذوا بالسنة ودعوا قولي.

ومن أجل هذا ينصفه إسحاق بن راهويه فيقول عنه فيما بعد: (ما تكلم أحد بالرأي – وذكر الثوري والأوزاعي ومالكا وأبا حنيفة – إلا والشافعي أكثر اتباعا وأقل خطأ منه).

وللشافعي مسند مشهور. واحترام "البخاري" و"مسلم بن الحجاج" صاحبي الصحيحين، ودعاء "ابن حنبل" في كل صلاة، وثناء سفيان بن عيينة، وعبد الرحمن ابن مهدي وإسحق بن راهويه وأئمة المحدثين المعاصرين له، كل أولئك، يضعه في القمة من أهل السنن.

كان رحمه الله يقول "اشهدوا أنه إذا صح الحديث عندي ولم آخذ به، فإن عقلي قد ذهب".

وكما يخضع للحديث إذا صح، ويوجب الاجتهاد إيجابا، ينهي عن المجازفة قال: "فالاجتهاد والقياس هما اسمان لمعنى واحد ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها وهي العلم.." و"لا يحل لفقيه عاقل أن يقول في ثمن درهم ولا خبرة له بسوقه. ومن كان عالما بما وصفناه بالحفظ لا بحقيقة المعرفة، فليس له أن يقول أيضا بقياس".

وكما ينهى عن المجازفة ينهى عن المكابرة. ويشترط للإنصاف في المجتهد: أن "لا يمتنع عن الاستماع ممن خالفه لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد به تثبيتا فيما اعتقد من الصواب. وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه، حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك. ولا يكون بما قال أغنى منه بما خالفه، حتى يعرف فضل ما يصير إليه على ما يترك. إن شاء الله".

ولهذا يقول "ما كلمت أحدا إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان.." ويقول لتلاميذه: "إذا ذكرت لكم دليلا فلم تقبلها عقولكم فلا تقبلوها فإن العقل مضطر إلى قبول الحق".

وكما ينهى عن المجازفة وعن المكابرة، ينهى عن التقليد، حتى تقليده هو، ويوجب الاجتهاد، والفهم لا الاتباع المتجرد.. ويضع لنا القاعدة التي يلزم بها الإسلام أبناءه فيرفعهم درجات وهي أن يفكروا.. قال: "من تكلف ما جهل ولم تثبته معرفة كانت موافقته للصواب غير محمودة والله أعلم، وكان بخطئه غير معذور إذا ما نطق فيما لا يحيط علمه بالفرق بين الخطأ والصواب" فلا محمدة للمقلد ولا عذر له، بل إنه ليعتبره جديرا بالاستغفار. قال: "وبالتقليد أغفل من أغفل منهن والله يغفر لنا ولهم".

ذكر أمامه من يحمل العلم جزافا ولا يعلمه قال: "هذا مثل حاطب ليل، يقطع حزمة الحطب فيحملها ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يدري".

والإخلاص يقتضي استجماع الفكر والتثبت. سئل عن مسألة فسكت. فقيل: ألا تجيب رحمك الله؟ قال: حتى أدري الفضل في سكوتي أم في الجواب. وما كان ذلك قصور باع أو ذراع" ولكنه كان يحسب للبيان الفقهي الحساب. فنسمع عنه وهو في قمة المجد العلمي قول

تلميذه يونس: كلمني الشافعي مرة في مسألة وتراجعنا فيها، فقال إني لأجد فرقانها في قلبي، وما أقدر أن أبينه بلساني!

فإذا ذكر أبا حنيفة فحاش أو شغاب، سفهه وتمثل بشعر تلميذ أبي حنيفة عبد الله ابن المبارك:

أمثلك – لا هديت إلى مقال – يعيب أخا العفاف أبا حنيفة

فمن كأبي حنيفة في نداه لأهل الفقر في السنة الجحيفة

ومطلعها:

لقد زان البلاد ومن عليها إمام المسلمين أبو حنيفة

بل إنه ليعلن في كل مكان ما لأبي حنيفة من مكانة في الإسلام بقوله (من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة). ولم يذكر أبو حنيفة في "الأم" على لسان الشافعي إلا مشفوعا بالدعاء له "رضي الله تعالى عنه" أو "رحمه الله تعالى". فإذا استعمل ريشة الرسام أو تعبيرات الشاعر استعملها في "كتاب أبي حنيفة" لا في أبي حنيفة [٤٧].

***

وفد الشافعي على بغداد وهو فرد الدهر. ولم يكن ثمت إلا ثلة ممن جلسوا إلى أبي حنيفة من نحو نصف قرن، كالحسن بن زياد ووكيع بن الجراح. أما تلاميذ أبي يوسف ومحمد

---

(٤٧) انظر ص ١٣٩.

فكأنما أخلوا المكان له. ومع ذلك فقد أفاد لنفسه من العلماء هنالك، كدأبه حيثما ذهب، وسيروي عن شيوخ العراق مثل وكيع، وحماد بن أسامة. وإسماعيل بن عليه، وعبد الوهاب ابن عبد المجيد: الأولان من الكوفة، والآخران من البصرة.

كانت مجالس بغداد عجبا من العجب. تجردت العقول الإسلامية فيها للدرس والتخريج، في كل ضرب من العلوم، من كل لغة معروفة، من الهندية والفارسية إلى اليونانية والسريانية. وكان المتفقهون، من أصحاب الرأي وأصحاب الحديث، يفعلون الأفاعيل فيمن يقعد في حلقة من الحلق ليطمئنوا على حفظه وإتقانه. فعندما قدم البخاري (١٩٤ – ٢٥٦) بغداد عمل أهل الحديث على امتحانه، فاجتمع منهم نفر جم، فعمدوا إلى مائة حديث فلبسوا الحق بالباطل، وجعلوا متن هذا الحديث لإسناد ذلك الحديث وإسناد ذلك لمتن هذا، ودافعوا عشرة من مجادليهم ليلقوها عليه بالمجلس. فكان كلما سأله واحد عن حديث يقول لا أعرفه، ولا يزيد، حتى فرغوا. فالتفت إلى الأول منهم فقال أما حديثك الأول فهو كذا.. وأما الثاني.. حتى فرغ من كل ما ألقاه عليه كل من ألقوا.. وعندئذ أقروا له بالحفظ والضبط والإتقان.

لكن الشافعي كانت تسبقه إلى هذه المجالس شهادات المتفقهين والعلماء، مثل إسحق وأحمد، وكانا في فناء السن. ومثل عبد الرحمن بن مهدي شيخ المحدثين وكان في الستين: من جرحه جرحه الناس ومن عدله عدلوه واجتمعوا على توثيقه. ولم تك شهادته مجرد تزكية، بل كانت اعترافا كاملا بمكانة الشافعي في الإسلام وعلومه مذ بعث إليه بكتاب (الرسالة) وكان يعلن للناس قول مالك: ما أتاني قرشي أفهم من هذا الفتى. وشهادته وشهادة مالك إقراران من بغداد والمدينة لإمام مكة.. فالشافعي يسعى إلى بغداد على أرض ممهدة. ويزداد شيخ المحدثين في التمجيد، فيزداد التمهيد، إذ يقول: ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل.

بل يقول: ما أصلي صلاة إلا وأنا أدعو للشافعي في كل صلاة أو في كل يوم.

ومع هذا كله لم يقلع المتفقهون في حلق بغداد عن أفاعيلهم، وقعدوا للشافعي كل مرصد – قال أبو ثور بعد إذ صار إماما له مذهبه الخاص: كنت أنا وحسين الكرابيسي من أصحاب الرأي، فلما قدم الشافعي العراق قصدناه وامتحناه بمسائل عويصة من فقه أبي حنيفة فأجاب فيها.

لكن الشافعي، كدأبه، لا يقف عند حد النجاة من المشكلات حيث لا يلحق شأوه أحد. وسيروي لنا إذ هو بمصر، ذكرياته لما دخل بغداد ونزل باب الشام فانصب الناس إليه فاستووا في مجالسهم حتى جاء أبو ثور بمسألة فراح يعلمه أن دخول البيوت من أبوابها أنجح للحاجة، فالآن شماسه وطأطأ رأسه. قال له يا أبا ثور، "الإيناس قبل الإسناس". فلم يدر ما قال. فقال ما هو يا أبا عبد الله. قال الشافعي: "الإيناس مسح الناقة بيدك حول ضرعها، والإسناس حلب ضرعها بيدك".

وسيروي لنا أبو ثور أنه قال له: (يا أبا ثور. بماذا تفتتح الصلاة بفرض أو بنقل؟ قلت بفرض. قال أخطأت. قلت بنقل. قال أخطأت. قلت بم تستفتحها؟ قال بهما وهما التكبير ورفع اليدين. التكبير فرض. ورفع اليدين سنة. وبهما تستفح الصلاة – ثم صرنا بعد ذلك من أصحابه).

لقد هبط بغداد كما تهب العواصف فلا يثبت أمامها إلا ما يقدر على الصمود. وراح يقتلع التلاميذ والشيوخ من الحلق اقتلاعا. قالوا: كان في الجامع إما نيف وأربعون حلقة أو خمسون حلقة. فلما دخل بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله وقال الرسول. وهم يقولون: قال أصحابنا. حتى ما بقي المسجد حلقة غيره.

هكذا ألقت بغداد السلم إلى الشافعي، وانقبع الذين مردوا على الشقاق في دورهم، أو قعدوا يتعلمون. وفرح المحدثون بنصر الله. قال الزعفراني (كان أصحاب الحديث رقودا فأيقظهم الشافعي فتيقظوا).

كان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر في العراق، ويأتيه من لا يطلبون شيئا وإنما يسمعونه يتكلم – كما نقلنا عن الزعفراني قبل.

وكما حدث الزعفراني أيضا: كنا نحضر مجلس بشر المريسي "فكنا لا نقدر على مناظرته فمشينا إلى أحمد بن حنبل فقلنا له: إيذن لنا في أن نحفظ الجامع الصغير الذي لأبي حنيفة لتخوض معهم إذا خاضوا فقال: اصبروا. الآن يقدم عليكم المطلبي الذي رأيته بمكة. فقدم علينا الشافعي. فمشينا إليه وسألناه شيئا من كتبه فأعطانا كتاب (اليمين مع الشاهد) فدرسته في ليلتين ثم غدوت على بشر المريسي. فلما رآني قال ما جاء بك يا صاحب حديث؟ قلت ذرني من هذا: إيش الدليل على إبطال اليمين مع الشاهد؟ فناظرته فقطعته فقال: ليس هذا من كيسكم: هذا كلام رجل بمكة معه نصف عقل الدنيا.

ولم يكن من كيس بغداد كذلك ما تحدث عنه أبو ثور إذ قال (لما قدم علينا الشافعي، دخلنا عليه فكان يقول: إن الله تعالى قد يذكر العام ويريد به الخاص ويذكر الخاص ويريد به العام. وكنا لا نعرف هذه الأشياء. فسألناه عنها فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ** ﴾ والمراد أبو سفيان ﴿ **يا أيها النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ** ﴾ فهذا خاص والمراد عام. فعلمت أنه كلام ليس على نهج كلام غيره).

إنما كان حديث الأصول إبداعا وفد على بغداد مع الأستاذ. ذلك قول الكرابيسي أيضا (ما كنا ندري ما الكتاب ولا السنة ولا الإجماع حتى سمعنا الشافعي يقول الكتاب والسنة والإجماع).

هكذا تتجلى شجاعة النفس والفكر في أروع الصور، فيهاجم آراء محمد في بلاط الرشيد، ومحمد يسهر على براءته. ويهاجم مدرسة بغداد، إذ هو في بغداد. ويجلي فقهاءها عن مقاعدهم.. ولسوف يهاجم مذهب مالك وهو يملك من قلبه شغافه، ويهاجمه في مصر حيث كانت لمذهبه الغلبة، بل حيث عبد الله بن عبد الحكم شيخ المالكية، والشافعي وعبد الله كالنفس الواحدة.

ولم يرو عن الشافعي أنه ناظر الحسن بن زياد اللؤلؤي (٢٠٤) مع أنه من تلاميذ أبي حنيفة. بل رووا أنه كان يتأبى على مناظرته: قال الفضل بن الربيع للشافعي: أحب أن أسمع مناظرتك مع الحسن بن زياد. قال الشافعي: ليس الحسن في هذا الحد. ولكن أحضر بعض أصحابي حتى يكلمه بحضرتك. ثم أحضر الشافعي رجلا كوفيا كان على مذهب أبي حنيفة ثم صار من أصحاب الشافعي. فلما دخل اللؤلؤي قال له الكوفي: ما تقول في رجل قذف محصنة وهو في الصلاة؟ فقال الحسن صلاته فاسدة. فقال ما حال طهارته؟ قال الحسن: طهارته باقية. قال: ما تقول إن ضحك في صلاته؟ قال الحسن: يعيد الطهارة والصلاة. قال: الكوفي: قذف المحصنات الصلاة أيسر من الضحك فيها..!! فوثب الحسن وأخذ نعله ومضى.

ولا ضحك الفضل بن الربيع. قال الشافعي: ألم أقل لك إنه ليس في هذا.

وفي هذه القدمة كتب كتابه "الحجة"، وسافر إلى البصرة وصحبه الحميدي تلميذه وتلميذ سفيان بن عيينة، كما سافر إلى الكوفة وناقش علماءها. وسجل مناقشاته.

قال الحميدي: كان يستفيذ منى الحديث وأستفيد منه المسائل.

التلاميذ:

كان أحمد بن حنبل (١٦٤ – ٢٤١) يسعى إليه بمكة ويقول: "إن فاتك عقل هذا الفتى فإني أخاف أن لا تجده إلى يوم القيامة" ويقول: "ما رأيت أحدا أفقه في كتاب الله تعالى في هذا القرشي" فجاءته فرصة العمر إذ جاءه الأستاذ. فصار أحمد في بغداد أطول صحبه ملازمة له، وأعظمهم فهما لعلمه.

وكان يمشي مع بغلته، قال يحيى بن معين: كيف تمشي مع بغلة هذا الرجل! فقال أحمد: لو كنت أنت من الجانب الآخر لكان أنفع!

بل إنه ليعلن أثر الشافعي في دين الله بقوله: (ما علمت أحدا أعظم منة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي) ويقول راويا عن النبي: (إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها)، فكان في رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز، وأرجو أن يكون على رأس المائة الثانية الشافعي رضي الله عنه.

ويقول عن نفسه لتلاميذه: هذا الذي ترونه أو عامته مني، هو عن الشافعي.. ويعلن أن الشافعي هو "عالم قريش الذي يملأ طباق الأرض علما".

قال قائل في حوار: "أستاذ الأستاذين" قيل من هو؟ قال الرجل: الشافعي – أليس أستاذ ابن حنبل..؟ وإنما قصد أنه أستاذ كبار الأساتذة.

وبهذا كان الشافعي أول إمام هو أستاذ (ابن حنبل) وتلميذ إمام (مالك). فاجتمع فيه علم الأئمة الثلاثة. وآل إليه علم الإمام الرابع أبي حنيفة على يد صاحبه الذي دونه وزاده. فهو الإمام الوحيد الذي اجتمع فيه الأئمة الأربعة، بالفعل وبالفكر، أي جماع علم أهل السنة.

تأثر ابن حنبل بالشافعي في فقهه وعمله وزهده وعفوه. وصارت له فيما بعد اختيارات في الفقه بناءها على الأحاديث. وخرج عنه من دقيق الفقه ما صيره الإمام الرابع للمسلمين. وكان بذاته استمرارا رائعا لمعارك الانتصار للسنة التي سالت في وطيسها حياة أستاذه. قطرة قطرة. وكأنما تحصلت رسالة التلميذ في حاصل جهد الأستاذ، مع التعمق في بعض الأبواب، مثل جمع الأحاديث في أعظم مسند، حوى أقل من أربعين ألفا تخيرها من ثلاثة أرباع مليون من الأحاديث. ومثل تضحياته وهو في أقياده لتأييد السنة، ليعلم المسلمين أن أعظم الدين هو البذل في سبيل الدن. ويومئذ تحقق قدره فصار للمسلمين إماما.

وكمثل أحمد، جلس أبو ثور، والزعفراني، والكرابيسي، وأحمد بن محمد الأشعري البصري، وسليمان بن داود الهاشمي وآخرون.

أما أبو ثور، إبراهيم بن خالد الكلبي (٢٤٠) فكان حنفيا تتلمذ على محمد بن الحسن ثم انتقل إلى مذهب أستاذه، ثم صار له مذهب خاص به. وهو يذكر أستاذه فيقول: من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس في علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكينه فقد كذب.. وكما بهره بعلمه، بهره بسخائه – قال: (كان الشافعي قلما يمسك الشيء من سماحته).

سئل يوما عنه وعن محمد بن الحسن: أيهما أفقه؟ فقال: الشافعي أفقه من محمد ابن الحسن وأبي يوسف وأبي حنيفة، وحماد وإبراهيم والأسود وعلقمة [٤٨].. ولم يبق أبو ثور من

---

(٤٨) حماد بن إسماعيل أستاذ أبي حنيفة. وإبراهيم النخعي أستاذ حماد. والأسود بن يزيد النخعي أستاذ إبراهيم. وعلقمة النخعي خال إبراهيم وعم الأسود.

مدرسة الكوفة إلى أستاذها الأعلى عبد الله بن مسعود. "صاحب النبي الذي كان كأنه من أهل بيته".. وقد أخذ عن أبي ثور أكثر أهل أذربيجان بأرمينية.

أما الحسين بن محمد الصباح البزاز الزعفراني (٢٦٠) فكان كأبي ثور على فقه العراقيين، ثم انتقل إلى مذهب الشافعي. وكان وحده الذي يقرأ كتب الأستاذ في الحلقة. ولم يكن في بغداد أحسن صورة منه ولا أفصح. قال فيه الشافعي: رأيت في بغداد نبطيا يتنحى [٤٩] علي. حتى كأنه عربي وأنا نبطي! ويقول الزعفراني بعد فراق أستاذه: إني لأتعجب اليوم من انطلاق لساني بين يدي الشافعي وأتعجب من جسارتي! ويقول: ما قرأت على الشافعي رضي الله عنه من الكتب إلا وأحمد بن حنبل شاهد. ولقد روى المبسوط عن الشافعي على ترتيب ما سيرويه الربيع فيما بعد بمصر، مع خلاف يسير. وكتبه كثيرة ضاع أكثرها.

وكان الكرابيسي – كزميليه – على فقه أبي حنيفة ثم تبع الشافعي، وكان نظارا جدلا. فيه كبر عظيم. وله أكثر من مائتي جزء صنفها. فلما قال (لفظي بالقرآن مخلوق) طعن فيه ابن حنبل. فذهبت ريحه، وسقط شأنه عند أهل السنة.

وأما أحمد بن محمد يحيى الأشعري البصري، فيستولى الدفاع عن مذهب الأستاذ بعد إذ يفصل عن بغداد، وسيخلفه في حلقته، ويكتب كثيرا مثله، فيلقب بالشافعي. كان عليما بالآثار والحديث مكينا في الجدل. فأمسى واحدا من العشرة الذين اختارهم المأمون لمجالسته والكلام بحضرته، وسماهم إخوته، ورسمهم في الديوان بذلك.

---

(٤٩) استعمل النحو.

ومن التلاميذ سليمان بن داود الهاشمي (٢٢٠) كان من بني العباس. والشافعي يقول عنه: ما رأيت أعقل من هذين الرجلين. أحمد بن حنبل وسليمان بن داود الهاشمي.

ومنهم أبو عبيد القاسم بن سلام وقد سبق ذكره.

الهجرة:

بقي الشافعي في بغداد عامين حتى ١٩٧. لكنه كان يستعد لرحلات أطول بعد إذ أحس أنه أدى في بغداد واجبه، فرجع إلى مكة، ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩٨، ليقيم فيها أشهرا ثم يبرحها سنة ١٩٩ إلى خارج الجزيرة العربية.

أوصى الرشيد علي بن مبارك الأحمر مؤدب ولده الأمين بقوله: (كن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار. وعلمه السنن. وبصره بمواقع الكلام وبدئه). فلما تولى الأمين الخلافة سنة ١٩٣ بوصية من أبيه تجعل لأخيه المأمون ولاية عهد الأمين، تعلق أمل العرب بالأمين، وكان عربيا خالص الدماء.. أمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، وأبوه الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور. لكن تقدير السماء غلب تدبير البشر.

ومع أن المأمون أكبر سنا بشهر، وأرجح عقلا بكثير، فقد كرر فيه التاريخ العباسي نفسه. كان جده "أبو جعفر" أكبر سنا من أخيه أبي العباس (السفاح) لكن أم المنصور كانت – كأم المأمون – أم ولد. فأوصى إليه السفاح بالخلافة لأن أمه عربية.

كان الأمين صاحب نهم وسرف.. تحيط به بطانة عربية على رأسها (الفضل ابن الربيع)، توجس خيفة من نذر الغد. أما بطانة المأمون، فكانت كأمه فارسية يتزعمها (الفضل بن سهل)، وهو حديث عهد بالإسلام فارسي الأصل. وأخذت كل حاشية تركض جوادها نحو غاياتها. فخلع الأمين المأمون من ولاية العهد وجعلها في عقبه. فسارت إليه الجيوش من خراسان حيث كان المأمون. فقتل في ٢٥ من المحرم سنة ١٩٨ – واعتذر المأمون بخطأ قواده لزبيدة.

قال: يا ستاه لا تأسفي فإني عوضه لك. قالت حفيدة المنصور، وزوج الرشيد، وأم الأمين أبلغ الكلم للمأمون: كيف لا آسف على ولد خلف خليفة مثلك.. وبكت وبكى حتى غشي عليه.

وعوض بعض أبناء الأمين، حقا بتزويجهم من بناته. وكان "زواج الدولة" بعض سياساته، سواء زواج بناته، أو زواجه هو من بوران بنت الحسن بن سهل أخي الفضل، وقد ولاه على العراق وفارس. وطلب طاهر بن الحسين وهرثمة، للشخوص إلى خراسان. وهما القائدان اللذان حققا له النصر.. فأحدث بلبلة في الناس. وخرج عليه ابن طباطبا الشيعي سنة ١٩٩ في الكوفة، وإبراهيم بن موسى في اليمن. بل إن الفضل بن سهل ليستطيع أن يجعل المأمون يوصي بالخلافة كلها بعده إلى إمام الشيعة "علي الرضا" بن موسى بن جعفر الصادق. ويزوجه وابنه من بنتين له!. وأعلن عمه إبراهيم بن المهدي في بغداد نفسه خليفة وبقي كذلك عامين إلا أياما (٢٠٢ – ٢٠٤).

وحارب المأمون في كل جبهة حتى استقر الأمر له، وانطلق يضرب الأمثال على عفو القادر. ويقول: "لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إلي بالجرائم"(٥٠). وكان يستحب الجدل: دعا أربعين فقيها، ذات يوم يجادلهم ليثبت لهم فضائل علي!

كان فقيها وشاعرا وفيلسوفا.. وكان شيعيا. ووزيره يحيى بن أكثم سني. وقاضيه أحمد بن أبي داؤد من المعتزلة!

---

(٥٠) عفا عن إبراهيم بن المهدي وصير، من ندمائه. وقدم إليه قواده الفضل بن الربيع بعد دخوله بغداد، فوثب المأمون عن عرشه فصلى ركعتين، ثم التفت إليه فقال: أتدري لماذا صليت يا فضل قال لا يا أمير المؤمنين. قال: شكرا لله الذي رزقني العفو عنك.

هكذا كانت بغداد تتنفس هواء فارسيا قاسيا في سنة ١٩٩. والمأمون، مركز الثقل، في خراسان شبه مغترب.

ورجوع الشافعي إلى مكة من بغداد سنة ١٩٧ في حياة الأمين، يسوغ القول بأنه برم بالبلدة التي يعميها يومها عن غدها، كمثل ما يجوز القول بأنه ترك بغداد إلى مصر، كارها، بعد قتل الأمين بشهور.

على أنه رجع إلى بغداد والفتنة تتفقأ. فلم يلق عصا التسيار. ومضى يبتغي الوسيلة إلى الهدوء والطمأنينة. وهما ضروريتان للطلب وللتدريس. فإذا التمس مهاجرا فحيث أقدم الأمم حضارة، وأوفرها ثراء، وأكثرها عددا. وفيها المستقبل. والهجرة سنة الرسل.

كانت غريزته تهتف به لتخليد فقهه تخليدا للفكر الإسلامي، في بلاد قانونها تخليد الحضارة. وآثارها شهود على الخلود.

وكانت السماء توجهه إلى مصر كما ستتجه إليها، وتعتمد عليها، قوة الإسلام. والاتجاه من الشرق إلى الغرب هو اتجاه الحضارة ذاتها، في اتجاه الشمس أو النور من الشرق إلى الغرب. إلى مصر.

وسأل فقيل له إن بمصر فرقة مالت إلى مذهب أبي حنيفة وناضلت عليه، وأخرى إلى مذهب مالك وناضلت عليه. فقال إني لأرجو أن أقدم مصرا إن شاء الله، فآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين جميعا. قالوا: ففعل ذلك والله حين دخل مصر.

وراح يجمجم الشوق إلى مصر. ويردد شعر أبي نواس:

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ومن دونها جوب الحزونة والوعر

فوالله ما أدري أللخفض والغنى أساق إليها، أم أساق إلى قبري

وتهيأت أسباب رحلته.. إذ ولي المأمون العباس بن موسى (من بني العباس) على مصر فقدم العباس ابنه عبد الله أمامه إلى مصر، فقدم إليها سنة ١٩٩ ومعه محمد ابن إدريس الشافعي، ومع الشافعي ابنه أبو عثمان محمد.

فالأمل العلمي هو الذي أجاءه إلى مصر. وليس الخوف من سيطرة الفرس كما ظن البعض، أو من تفاقم نفوذ المعتزلة (القائلين بخلق القرآن) كما ظن آخرون.. فالمعتزلة لم يظفروا بالصدارة عند المأمون إلا بعد قدومه إلى بغداد من خراسان في أوائل سنة ٢٠٤. والشافعي مات بمصر، في رجب سنة ٢٠٤.

وقال المأمون: لولا مكان يزيد بن هرون لأظهرت القول بخلق القرآن.. فقال له بعض جلسائه: ومن يزيد بن هرون حتى يتقيه أمير المؤمنين؟ قال: إني أخاف إن أظهرته يرد علي، فيختلف الناس وتكون فتنة. وأنا أكره الفتنة. ويزيد مات سنة ٢٠٦. ولما عزل يحيى بن أكثم عن منصب قاضي القضاة سنة ٢١٧، خلفه أحمد بن أبي داؤد زعيم القائلين بخلق القرآن. وفي العالم التالي أخذ المأمون في امتحان الناس في خلق القرآن، وإن كان تكلم برأيه ابتداء من سنة ٢١٢.

وفي جمادى الآخرة سنة ٢١٨ ورد كتاب المأمون لواليه على مصر بامتحان من حضر للشهادات. فمن أقر بأن القرآن مخلوق. وكان عدلا، قبلوا شهادته. كذلك بعث إلى واليه ببغداد

ليمتحن القضاء والشهود والفقهاء والمحدثين ومنهم أحمد بن حنبل وأبو حسان الزيادة ومحمد بن نوح.

كل أولئك.. والشافعي كان مقيما بمكة. والهجرة من مكة. وما قدم الشافعي بغداد إلا ليلتحق بقطار الوالي الجديد إلى مصر. ولو أنه كان يعتزم المقام في العاصمة فلا يسوغ في الذهن أن تفجأه العاصفة بأوضاع مجهولة له. وهو قد كان هنالك. وأخبار شبه الجزيرة تطويها كلها في أيام. والعاصمة لا تغيب أخبارها عن أستاذ مكة. ومكة عاصمة العواصم. لها سماعاتها.